المعايير النقدية والبلاغية في ضوء أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)

د.يوسف عواد سالم القماز*

تاريخ وصول البحث: ٢٥/ ٧/ ٢٠١٨م تاريخ قبول البحث: ٢٦/ ١٢/ ٢٠١٨م

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة استنطاق ما ورد عن النبي ﷺ من أحاديث لها تعلق في جانب إثراء الملاحظات النقدية والبلاغية في الأجناس النثرية في بدايات أطوارها في عصر صدر الإسلام، وملاحظة جوهر التغيير في النظرة إلى النقد والبلاغة، ومدى البون بين السابق الجاهلي واللاحق الإسلامي، وأين تكمن وجوه الشبه من جهة والمفارقة من جهة أخرى.

لقد اتضح في ضوء هذا البحث أن أثرا عظيما إيجابيا قد أحدثه حديث الرسول ﷺ في هذا الجانب المذكور، ويتمثل في وضع معايير نقدية بلاغية لها تعلق بشمولية التصور للكون والحياة، وتوسيع مجال الفكروالنظر خاصة فيما يتعلق بما وراء الكون والطبيعة، وتصويب النظر والاعتقاد بما يتلاءم مع رسالة السلام الإسلامية العالمية الخالدة، وتصويب العلاقات الفاعلة بين الإنسان وخالقه، ثم بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والموجودات الحية من حيوان ونبات، وبين الإنسان والجمادات، حيث تم استلهام كل هذه القضايا وإدراجها في ضوء مضامين الإبداعات الشعرية والنثرية وفنون القول المتوفرة آنذاك وتشكيلاتها التعبيرية.

Critical and Rhetorical Standards in Light of the Prophet's Tradition

Abstract

This study aims to examine the Prophet's tradition (peace be upon him) which might have enhanced critical and rhetorical remarks about different genres of prose in the early Islamic age, as well as to notice the essence of change in criticism and rhetoric observations and the gap between the pre-Islamic and the Islamic eras in terms of similarities and differences.

The study states that the Hadith has introduced a significant and positive role in setting critical and rhetoric standards for a comprehensive vision regarding life, universe and the metaphysical in particular.

* أستاذ مشارك، جامعة مؤتة.

The prophetic tradition also contributed in correcting the views and beliefs in a way that fits the universal and eternal message of Islam maintaining the active relationship between man and the Almighty Creator and correcting the interhuman relationships and similarly the relationship between man and the surrounding creatures whether animate or inanimate.

All these issues have been inspired and considered in light of the implications of the poetry and prose arts and their expressive representations available at the Prophet's life (Peace be upon him).

Keywords: Hadith of the Prophet peace be upon hi, criticism standards, Rhetorical standards, Islamic era.

المقدمة:

تـردد صـدى أثـر الأحاديـث النبويـة الشريفة إيجابيا في أشعار الشعراء، وكـذلك في المقولات النثرية، خاصة الجانـب الخطـابي في عصره ﷺ، والعصور التاليـة لعصـره؛ حيـث نجد انعكاسـات التصـورات الجديـدة المنبثقـة عن أحاديثه واضحة جلية في أشـعار: حسـان بن ثابت، وعبدالله بن رواحـة، وغيرهـم ممـن عاصر المصطفى ﷺ كمـا تـردد صـداها عنـد الخطباء في عصره، ومن جاء بعـده مـن أمثـال الصـحابة: الخلفـاء الأربعـة ﷺ، فقـد كـانوا خطبـاء مفـوهين يستضـيئون في خطابـاتهم بخطابته ﷺ، وبآي الذكر الحكـيم، ثـم الكـثير مـن خطبـاء بـني أميـة أمثـال: سـحبان وائـل صاحب الخطبة الشوهاء، وولاتهم من أمثـال زياد ابن ابيه صـاحب الخطبـة الـبتراء، الـذي قال في وصـفه الشـعبي: "مـا سمعـت متكلمـا على منبر قط، تكلـم فأحسـن إلا أحببـت أن يسكت خوفـا مـن أن يسـيء إلا زيـادا؛ فإنـه كلما أكثر، كان أجود كلاما"[1]، والحجـاج بـن يوسـف الثقفـي الـذي يقـول فيـه مالـك بـن دينار: "ربما سمعت الحجاج يخطب، يـذكر مـا صنع به أهل العراق وما صنع بهـم، فيقـع في نفسـي أنهـم يظلمونـه وأنـه صـادق؛ لبيانـه وحسن تخلصه بـالحجج"[2]، ثـم نجـد صـداها يمتد عبر القرون إلى يومنا هذا.

أما فيما يتعلق بالمقاييس الفكرية والمعـايير النقدية في إطارهـا الفلسـفي العـام، فإنـا نجـد اطروحاته ﷺ تتكرر من خـلال أطـر شـكلية وقوالـب لفظيـة في الفكـر النقـدي العربـي

والغربي على حد سواء، تبرز وتتضح عندما يتقدم الإنسان من معنى الإنسانية خاصة في الفلسفة الواقعية التي تهتم بجوانب المضمون بالإضافة إلى شكلية التعبير، وتضعف ويصيبها الاضمحلال كلما هبت رياح البعد عن معنى الإنسانية عند الإنسان، وهو ما نلمسه جليا عند بعض المدارس النقدية الحديثة التي تعتمد على فهم جمال العمل الإبداعي بغض النظر عن مضمونه خاصة عند الفلسفة المثالية وجماليات الشكليين.

لقد كان مجيء الإسلام حدثاً عالمياً أجرى تغييرات هائلة في النظرة إلى الحياة والكون والإنسان، بل شملت جذوة التغيير كل مظاهر المجتمع العربي القديم في جوانبها المتعددة في النظرة إلى الكون وعلاقة الإنسان بالموجودات الكونية الحية والجامدة وتعدى إلى نظرة الإنسان إلى ما وراء الطبيعة من العوالم العلوية. ويمكنني القول إن شمولية التغيير تلك التي أحدثها الإسلام تحمل في طياتها بذور الأصالة للنقد والبلاغة العربية في طورها الإسلامي؛ إذ لا يعقل أن نجد التغيير الشامل في المفاهيم للكون والحياة ولا يكون لهذا التغير بصمات واضحة وجلية في جانب الأدب باعتباره انعكاسا حقيقيا للمجتمع الذي ينشأ فيه.

إن بذل الجهود في محاولة قراءة البدايات الحقيقية للنقد على أسس موضوعية، مدعاة لبيان مقدار الأصالة فيه وقطعا للطرق على أولئك الذين يزعمون بأن النقد العربي منذ بداياته نقد تشوبه وتطغى عليه مستوردات من الأمم الأخرى كاليونانية والرومانية، واستبعادا إلى حد ما للذاتية في النقد، وقضاء على كل دعي في مجال النقد والبلاغة.

وحتى يتضح مقدار التغيير، يجدر أن نلقي الضوء بعجالة غير مخلة على مزايا الإبداعات الأدبية في العصر الذي سبق نزول الرسالة لنجد قوة التعبير وسلامة العبارة وجودة السبك وجزالة الألفاظ، بالإضافة إلى ضحالة التصورات وضيق في المعاني وتفككها، وطغيان الصنعة عند بعضهم -كما هو الحال عند مدرسة أوس ابن حجر في الشعر- وانطلاقها من عقال التصنع عند آخرين.

أما فيما يميز النظرات البلاغية والنقدية، فنجد أن سماتها العامة تتمثل في النظرة الجزئية للعمل الأدبي حيث يدور في جانب الشعر على نقد البيت الواحد من الشعر أو جزء منه كنقدهم للنابغة بقولهم: أقويت أقويت[٣]، أو جملة منه كقولهم: استنوق الجمل[٤]، ثم الأحكام غير المعللة في كثير من

الأحيان، كإطلاقم اسم البتارة على قصيدة حسان:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

بين الجوابي فالبضيع فحومل[٥]

والمعللة أحيانا أخرى كقول النابغة لحسان: أقللت جفانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[٦]، والاعتماد على الإحساس والذوق الفطري، ناهيك عن التعميم في إصدار الأحكام كقول قريش في بعض قصائد علقمة بن عبدة الفحل الميمية والبائية: هاتان سمطا الدهر[٧]، وأقوال للنابغة في حق بعض الشعراء: إنك لشاعر، أنت أشعر الناس...[٨]، واستخدام عبارات موجزة معبرة قابلة للتوسع عند التحليل تستخدم التصورات ذات العلاقة بالبيئة الجاهلية عند الحكم، وخير ما يمثل ذلك ما أوردته كتب الأدب من قصة اجتماع مجموعة من شعراء تميم قبل الإسلام هم: الزبرقان بن بدر، وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطيب والمخبل السعدي، وطلبهم من ربيعة بن حذار الأسدي الحكم في أيهم أشعر حيث قال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن، لا هو أنضج فأكل، ولا ترك نيئاً فينتفع منه، وأما أنت ياعمرو فإن شعرك كبرود حبر يتلألا فيها البصر، فكلما أعيد فيه النظر نقص البصر، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم، وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر[٩] وربما تقدم النقد باستخدام المفاضلة بين شاعرين في موضوع واحد مع التركيز على جانب من جوانب النقد كرسم الصورة الفنية حيث نجد ذلك عند أم جندب في حكمها على رسم صورة الخيل بين زوجها امرئ القيس في قصيدته البائية التي مطلعها:

خليليَّ مرا بي على أم جندب

لنقضي حاجات الفؤاد المعذب

حيث يقول:

فللسوط ألهوب وللساق درة

وللزجر منه وقع أهوج منعب

وعلقمة الفحل في بائيته التي مطلعها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب

ولم يك حقا كل هذا التجنب

حيث يقول:

فأدركهن ثانيا من عنانه

يمر كمر الرائح المتحلب

فقد رصدت أم جندب درجة التغاير في رسم صورة الفرسين؛ الفرس المجهد المتعب المجنون بسبب الضرب والزجر، وهي صورة

توحي بعدم الأصالة في الموصوف، والفرس المدرك للطريدة بسهولة ويسر وهو ثان من عنانه الموحية بأصالة الخيل العراب[١٠].

والسمة الأكثر شيوعا في نقدهم تتمثل في التركيزعلى نقد المعاني بعبارات موجزة كما في نقدهم للغلو عند المهلهل وامرئ القيس وذلك في قول الأول:

فلولا الريح أسمع من بحجر
صليل البيض تقرع بالذكور

وقول الثاني:

تنورتها من أذرعات وبيتها
بيثرب أدنى دارها نظر عالي[١١]

وربما دخلت العصبية القبلية، والموالاة طرفا في النقد، حيث يظهر ذلك من خلال تفضيل عمرو بن الحارث الغساني حسان بن ثابت على النابغة، وعلقمة بن عبدة، علما أن ما أنشداه أمامه من قصيد يعد أفضل مما أنشده حسان؛ فقد أنشد علقمة قصيدته التي أقرت قريش بأنها سمط الدهر، وهي التي مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

وأنشد النابغة قصيدته:

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

التي تعد من عيون الشعر الجاهلي في الاعتذار، وعلى الرغم من ذلك يفضل الحارث قصيدة حسان:

أسألت رسم الدار أم لم تسأل
بين الجوابي فالبضيع فحومل

ويسمها بالبتارة[١٢] مع أنها قد تكون ليست أكثر جودة مما سبق، والأمر يعود إلى أن حسان قد قصر معظم شعره على ملوك آل جفنة من الغساسنة.

أما النابغة فكانت جل أشعاره في المناذرة أعداء الغساسنة التقليديين. فالتفضيل هنا يعود إلى التعصب لا إلى الجودة الشعرية.

وربما دخل في النقد بعض الاعتبارات العرفية وعادات الجاهلية مثل قول طرفة نقدا لبيت المسيب بن علس:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره
بناج عليه الصيعرية مكدم

استنوق الجمل؛ لأن الصيعرية تعلق في عنق الناقة وليس الناجي (الجمل)[١٣] فهذا النوع من النقد دلالته عرفية.

وخلاصة القول: إن النقد في هذه المرحلة -كما يرى أحمد أمين- لم يكن مبنيا على قواعد فنية، ولا على ذوق منظم ناضج،

إنما هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة[١٤] وهو ما يقارب رأي عبد العزيز عتيق في قوله: "وإذا تذكرنا أن النقد الذي تمخضت عنه قرائح النقاد في هذا العصر إنما يمثل نشأة النقد العربي ومراحله، فإنه يكون من التجني أن نتوقع منهم أن يحللوا ويعللوا وأن يخوضوا في قضايا النقد الأخرى[١٥]. ويخلص محمد حسن عبدالله إلى القول بأن النقد الجاهلي "عملي تطبيقي غالبا، يهتم بالجزئيات حين يرصد الأخطاء، ويعمم الأحكام حين يحكم بالتفوق أو الحسن، وهو نقد ذوقي يعتمد على التجربة الخاصة أو الدراية دون أن يعمد إلى التحليل أو التعليل، وهو قليل من الناحية الكمية، ومن الصعب أو الافتعال التحدث عن اتجاهات أوأسس عامة فيه، فلم يكن الناقد المختص قد وجد بعد"[١٦] ويرى إحسان عباس: أن النقد الجاهلي يجمع بين النظرة التركيبية والتعميم والتعبير عن الانطباع الكلي دون لجوء للتعليل، وتصوير ما يجول في النفس بصورة أقرب إلى الشعر نفسه، وذلك هو شان أكثر الأحكام التي نجدها منذ الجاهلية...وإذا كان هذا النموذج (تحاكم مجموعة من شعراء تميم إلى ربيعة بن حذار الأسدي) من أرقاها فإن معظم النماذج الباقية إنما يتحدث عن شئون خارج الشعر نفسه أو جزئية فيه، شئون متصلة بالعرف أو بالمعارف التي يتضمنها الشعر أو بلفظة معجبة هنالك أو بيت محكم المعنى والسبك...[١٧] ونختم بما يراه شوقي ضيف من أن النقد الجاهلي كان ساذجا فطريا يعتمد على الإحساس والذوق البسيط...وأن النقد العربي كان في جملته نقداً عملياً يتصل بالجزئيات ولا ينفك عنها إلا قليلا فقد كان محوره غالبا البيت والعبارة ولم ينظروا في الأدب أو الشعر نظرة عامة، فقد شغلتهم النظرة الجزئية بحيث يمكن أن نقول إن نشاطهم النقدي كان أقرب إلى البلاغة منه إلى النقد الخالص. ولا ننكر أنهم تركوا كثيرا من الأحكام العامة إلا أنها تجري على ألسنتهم في جمل مركزة وقلما حللوها[١٨].

هذا فيما يتعلق بجانب الشعر، أما في جانب الفنون الأدبية النثرية الجاهلية كالوصايا والمنافرات والرسائل وسجع الكهان والأمثال، فليس هناك ما يدل على دخولها تحت نظر المتعاطين للنقد، بل أهملت إلى حد كبير إلا ما كان من فن الخطابة الذي يعد من أكثر الفنون الجاهلية أصالة بعد الشعر- وما أكثر ما قيل من الخطب لمناسبات متعددة سلما وحربا- فقد وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقع لسن كما وصفهم باللوذعية

والرمي بالكلام العضب القاطع[١٩] ووصفوا خطابتهم ببرود العصب الموشاة وبالحلل والديباج والوشي وأشباه ذلك[٢٠]. كما عدوا قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب لخطبته التي ألقاها في سوق عكاظ نظراً لما تحمله من مضامين[٢١] وفي البيان والتبيين ما يفهم أنهم كانوا يبالغون في حوك الكلام باستخدام التشدق والتقعر والتفيهق وتجهير الصوت والتفاخر بهدل الشفاة ورحب الغلاصم وخلخلة الألسنة بالكلام وتجويد الألفاظ وأن ذلك في أهل الوبر أكثر منه في أهل المدر[٢٢] كما تعددت عندهم أنواع الخطب من وعظية وسياسية وحربية ومحفلية وخطب الإملاك (الزواج) إلا أن الأحكام النقدية على هذه الخطب لم تتناول الجزئيات أو التحليل الموضوعي بقدر كونها تعميمات قد يدخلها المبالغة. وهذا الحديث لا يتعارض مع القول ببلوغ العرب في الجاهلية شأوا بعيدا في القدرة على إحسان القول والإتيان به بليغا مطابقا لمقتضيات الأحوال، وأنهم أوتوا حظا عظيما من اللسن والفصاحة والقدرة على حوك الكلام، والقدرة والبصر على تمييز الكلام وبلاغة الإفهام حتى عدوا حجة على من بعدهم في اللغة والأدب وعدّ عجزهم عن تناول القرآن بالقدح البياني دليلا لمن بعدهم على عدم القدرة على الإتيان بمثله. ولا أدل على مكانتهم المرموقة العريقة في فن القول من وصف القرآن لهم بالقدرة على المخاصمة والمبالغة في ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[الزخرف: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ﴾[المنافقون: ٤].

أما من حيث المضامين، فلا شيء يقف عائقاً أمامهم في حدود تصوراتهم واعتقاداتهم وإدراكاتهم للحياة وما بعد الحياة؛ فقد تحدثوا عن الحروب والظلم والصلح والآلهة والمعتقدات الفاسدة والأصنام والمتع الدنيوية ووصف الطبيعة والمرأة والخمر ومجالسها والقيان واللهو، فقد رصدت لنا كتب الأدب والمصادر الشيء الكثير، وحسبك من ذلك قول امرئ القيس:

ألا رب يوم لك منهن صالح
ولا سيما يوما بدارة جلجل

وقوله:

كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل[٢٣]

وقول أوس بن حجر مشيرا إلى زواج الرجل من أمه أو خالته أو امرأة أبيه أو ابنه وهي من الآثار الفارسية عندهم:

والفارسية فيهم غير منكرة
فكلهم لأبيه ضيزن سلف[٢٤]

بل ربما استخدموا الألفاظ الفارسية في بعض أشعارهم كما نرى في القصيدة المنسوبة لامرئ القيس:

لمن طلل بين الجدية والجبل
محل قديم العهد طالت به الطلل[٢٥]

ومنها:

فقالت أنا رومية عجمية
فقلت لها ورخيز بياخوش من قزل
وقد كان لعبي كل دست بقبلة
أقبل ثغرا كالهلال إذا أهل

فجملة (ورخيز بياقوش من قزل) من لغة رومية معناها: أنا رومية عجمية كأن الشاعر ردد كلامها في الشطر الأول، وكلمة (دست) معناها عشرة بالفارسية[٢٦] ومن حديثهم عن التطير والطيرة أبيات الحارث بن حلزة:

يأيها المزمع ثم انثنى
لا يثنك الحادي ولا الشاحج
ولا قعيد أعضب قرنه
هاج له من مربع هائج
بينا الفتى يسعى ويسعى له
تاح له من أمره خالج
يترك ما رقح من عيشه
يعيث فيه همج هامج[٢٧]

أما المضامين المتعلقة بفنونهم النثرية، فتعتمد على نوعية الفن النثري؛ ففي المنافرات النثرية نجد التركيز على المكانة والشرف والحسب والنسب والكرم، وما يتعلق برفعة الإنسان الجاهلي من جهة، وما يتعلق بوضاعة قبيله وغريمه من جهة أخرى كالوصف بالجبن والانحطاط والبخل وعدم النجدة وقلة الوفاء والفرار من المعارك وغيرها[٢٨]، وهو ما نهى عنه النبي ﷺ بقوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٢٩].

وفي الوصايا: نجد المضامين تتعلق بإسالة عصارة التجارب المفيدة في الحياة ونتائج التجارب لتصب في وعي الموصى، مع صدق في العبارة وبعد عن التنميق الشكلي والزخرفة اللفظية[٣٠].

وقد استمرت على وضعها في صدر الإسلام، وخير ما يمثلها من القرآن الكريم وصية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]، وكذلك وصاياه ﷺ للأمة خاصة في حجة الوداع.

أما الخطب فمضامينها تتناسب مع أنواعها إن كانت حربية أو محفلية أو خطب

زواج ومصاهرة أو صلح أو وفادة على العظماء وغير ذلك. أما الأمثال فمضامينها متعددة متفاوتة حسب مواردها الأصلية وهي تشكل في الحس العربي عصارة العصارة للتجارب الحياتية اليقينية التي لا يدخلها الشك في جوانب المطابقة للواقع المعاش والمصاغة بقوالب لفظية محكمة السبك دقيقة الإصابة، بعيدة عن التصنع في كثير من الأحيان لجريانها في لغة التخاطب اليومية العادية التي تجري عفو الخاطر دون تعمّل، وقد خالف الكثير منها القواعد الصرفية والنحوية- كقولهم: مكره أخاك لا بطل[٣١]، وأعط القوس باريها (بسكون الياء)[٣٢]- بسبب هذه العفوية، ومصنوعة بدقة وإتقان أحيانا أخرى وسبب هذا الورد بنوعيه كما يقول شوقي ضيف: "إن الأصل في الأمثال أن لا تكون مصقولة ولا مصنوعة؛ لأنها من لغة الشعب، وقلما نمق الشعب لغته، غير أنه كثيرا ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية في الأمة: طبقة الشعراء والخطباء، فتحقق لها هذه الطبقة ضروبا من عنايتها العامة بفنها، وهذا هو مصدر الاختلاط في الحكم على الأمثال، فبينما نجد أمثالا غير مصقولة، نجد أخرى تفنن أصحابها في صوغها..."[٣٣] وبالرجوع إلى جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) أومجمع الأمثال للميداني (ت ٨١٥هـ) نجد مصداقية ذلك.

أما سجع الكهان فمضامينه غالبا ما تتعلق بتكهنات عن الأمور الغيبية وغيرها.

بهذا القدر الموجز من الحديث عن النقد الجاهلي يمكننا تصور الوضع العام له حتى يتميز لنا مقدار الزيادة عليه إذا ما بدأنا الحديث عن النقد والبلاغة في أحاديث الرسول ﷺ.

النقد والبلاغة عند الرسول ﷺ:

عند تناول هذه القضية لابد من تركيز بؤرة النظر على جانبين، الأول منهما يعتمد على أحاديثه ﷺ من حيث تفوقها في جانب فن القول على مقولات غيره حتى عصرنا الحاضر، حيث أجمع الدارسون لحديثه قديما وحديثا على عده في الدرجة الثانية بعد القرآن من حيث الفصاحة والبلاغة، والدرجة الأولى فيما يتعلق بإنتاج البشر؛فلم يستطع أحد ممن أعطوا فن القول أن يبلغ شأوه ومكانته، والمتتبع لأحاديثه -التي وصل إلينا منها مئتا ألف حديث ونيف جمعها السيوطي في كتابه جمع الجوامع- يستسهل إمكانية استخراج ما توصل إليه النقاد والبلاغيون من مسائل واصطلاحات تتعلق

بالموضوعات ذات الشأن والحصول على نماذج وأمثلة من أعلى الدرجات البلاغية لاستخدامها نماذج اقتداء واتباع لمن يرغب الولوج في عالمي البلاغة والنقد. والأقوال التي تصف بلاغته وفصاحته كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ما قاله الجاحظ في وصف كلامه ﷺ: "...وهو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، فكيف وقد عاب التشدق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط، في موضع البسط والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي ورغب عن الهجين السوقي؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له مابين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع الاستغناء عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط كلمة ولا زلت به قدم ولا بارت له حجة، ولم يقم خصم ولا أفحمه خطيب بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب فلجا إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز ولا يبطئ ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه"[٣٤]. ويقول القاضي عياض: "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان ﷺ بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معنى، وقلة تكلف"[٣٥]. ويرى الرافعي أن البيان النبوي يتمتع بمجموعة من الخصائص تميزه عن غيره فمن جهة الألفاظ نجده مسدد اللفظ محكم الوضع جزل التراكيب متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، واضح الصلة بين اللفظ والمعنى؛ فلا حرفا مضطربا ولا لفظة مستدعاة لمعنى ومستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها. ومن جهة البيان تجده حسن المغزى، بين الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الوصف، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة غريب الحجة ناصع البيان، لا ترى فيه إحالة ولا استكراه ولا ترى اضطراباً ولا خطلا ولا استعانة عن عجز، ولا توسعاً من

ضيق، ولا ضعفا في وجه من الوجوه، مع سمو المعنى وفصل الخطاب[٣٦]. هذان الوصفان القديم والحديث يبينان لنا مقدار قدرته صل على حوك الكلام وإجادته بل أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فقد وصف القران كلامه ﷺ بأنه وحي قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] المحلل لكلامه ﷺ يجد مصداقية ذلك، فقد أوتي جوامع الكلم بأسلوب سهل ممتنع، وقد اهتمت دراسات كثيرة في استنباط دلائل الإعجاز في حديثه الشريف وتحليل أقواله ﷺ وتفتيق ما تحمله من فنون القول المتعددة بأعلى صورة تعبيرية- تراعي من خلالها طبيعة التكوين الشخصي للمخاطب وحالاته النفسية وتلائم بينها وبين أساليب الخطاب في بعد عن التكلف والإغراب واستخدام الحوشي من الألفاظ بالإضافة إلى التجافي عن التعقيد والاستكراه وقلق الألفاظ واستبداله بالسلاسة المتسقة مع طبيعة البيان المحقق لغايات المقام، إنها الصور التعبيرية التي لا تحفل بالسجع المتكلف، ولا تلوي أعناق الألفاظ لقسرها على أداء المعاني، ناهيك عن استخدام الإيجاز غير المخل في مواطن الإيجاز والتكثيف، والإطناب حيث يتطلب المقام ذلك، مع التنويع في اساليب حوك الكلام بين الخبر وتعدد أضرابه، والإنشاء وتفاوت أنواعه، وغيرها من الوان التعبير الخالي من الزخرفة اللفظية لغايات الزخرفة المفعم بالصور الحقيقية والخيالية والتمثيل، -منها على سبيل التمثيل لا الحصر: كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، حيث بين من خلاله البون الشاسع بين لغة النبي وفصاحتها ولغة غيره من العرب، ووضح الكثير من الخصائص الفنية للقول وكتاب (الحديث النبوي الشريف من الوجه البلاغية)، وقد عمد مؤلفه كمال عز الدين إلى رصد القيم الجمالية والأسس الفنية والآثار المعنوية في الحديث. وكتاب (القصص في الحديث النبوي) لمحمد حسن الزير، حيث ركز على المعايير الفنية في القصة النبوية، بالإضافة إلى أنواع القصة وأهدافها. وكتاب (مدخل إلى البلاغة النبوية) لحلمي محمد القاعود، حيث بين في كتابه أسباب تفوق الحديث وأسلوبه وخصائصه مع تطبيقات واسعة في أساليبه المختلفة، وكتاب (دراسات في البيان النبوي) لمحمد رفعت أحمد ويشمل الكتاب مناقشة موضوعات علم البيان في الحديث النبوي الشريف الواردة في مشكاة المصابيح، ومن الكتب أيضا كتاب من كنوز

السنة (دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) للمؤلف محمد علي الصابوني، حيث عرض المؤلف بالتحليل الأدبي واللغوي والبلاغي لأربعة وثلاثين حديثا مستخرجا من خلالها جوامع الكلم عند الرسول ﷺ وأنواع البيان، ومن الدراسات العربية القديمة التي تصب في الموضوع نفسه كتاب (المجازات النبوية) للشريف الرضي حيث قام بالشرح والتحليل لمجموعة كبيرة لأحاديث الرسول بلغت ثلاثمائة وستين حديثا أماط من خلالها اللثام عن أسرار البلاغة النبوية وصنوف الأساليب النبوية الرفيعة، وكتاب (الفائق في غريب الحديث) للإمام جار الله الزمخشري، حيث أشار إلى أصناف البديع وأنواع البيان، وكتاب (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري) للإمام العيني، وغيرها من الكتب. والمطلع على هذه الكتب وتحليلاتها يتبين الخصائص والسمات الأسلوبية لأحاديثه ﷺ فقد شمل جميع الفنون البلاغية المعروفة عند أهل المعاني والبلاغة في علومها الثلاثة البيان والمعاني والبديع؛ ففيه التشبيه والمجاز والكناية والتجريد، كما اشتمل على أنواع الأساليب الإنشائية والخبرية، وحفل بأنواع البديعيات من طباق ومقابلة وجناس وسجع وصحة تقسيم ومبالغة واحتراس وتتبيع وتوشيع وتذييل وتتميم إلخ...

أما في جانب التنظير ووضع الأسس للمعايير النقدية والبلاغية فقد كان له ﷺ القدح المعلى، والنصيب الأكبر، وأقواله في هذا الجانب ناتجة عن قدرة خبير في صوغ الكلام ومعرفة مداخله ومخارجه لا مجرد تنظير من فم من لا يحسنه، ومن المعلوم بداهة أن القواعد البلاغية والنقدية تكون أدق ما تكون إذا قررت من قبل صانع للكلام الجيد متبحر فيه قد أحاط باللغة- ولا يحيط بها إلا نبي- فالكاتب الناقد أكثر إجادة في معرفة ما يحسن في الكلام من الناقد الذي لا يجيد الكتابة. ومن هنا يمكنني القول أن معاييره النقدية والبلاغية ليست مجرد تنظيرات لا يمثلها الواقع بل هي من صميم الواقع الأدبي، والدراسات في هذا المجال غير متوفرة سوى شذرات هنا وهناك يصعب التقاطها من بطون الكتب، وهأنذا أحاول من خلال هذه الدراسة أن أضع النقاط على الحروف من خلال استخراج ما يمكن استخراجه من القواعد والمعايير المتعلقة بالبلاغة والنقد في أحاديثه ﷺ، مع الاقتصار على تلك المعايير والمقاييس المتعلقة بالكلام المنثور.

اختيار الكلمة المعبرة بكل أبعادها الدلالية والصرفية والصوتية:

أول ما يطالعنا من اهتماماته ﷺ بهذا الشأن حديثه عن ضرورة اختيار الكلمة المعبرة، واختيار الكلمة ومواصفاتها أول ما يقع عليه نظر النقاد والبلاغيين؛ فقد درج البلاغيون عند الحديث عن فصاحة اللفظ أن ينظروا إليه من حيثيات مختلفة، في جانب النطق وانسجام الحروف، وجانب السمع وخفة الكلمة، والاستعمال من حيث الوحشية والندرة، أو الابتذال وموافقة القواعد الصرفية، بالإضافة إلى المعنى، فعابوا (الهعخع ومستشزرات والسجنجل والأجلل والجرشا)[٣٧]، وما ذاك إلا تفسيرا لما أثر عن النبي ﷺ أنه كان يعنى بتخير الألفاظ، وقد ورد في هذا المجال قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل: لقست نفسي"[٣٨] قال أبو عبيد: "وجميع أهل اللغة يرون بأن (لقست وخبثت) بمعنى واحد، وإنما كره النبي ﷺ لفظ الخبث لبشاعة الاسم وتعليمهم الأدب في الألفاظ، واستعمال حسنها وهجران خبيثها"[٣٩]. وهذا الطلب في استخدام الجميل من الألفاظ يدخل في عموم قوله تعالى:﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: ٥٣] ويبدو أن السلف الصالح تمثلوا هذه المقولة النبوية ، فقد ورد عن الشافعي أنه قال لأحد تلاميذه: "يا أبا إبراهيم، اكس ألفاظك أحسنها، لا تقل: فلان كذاب. قل: فلان ليس بشيء"[٤٠].

وفي نهيه ﷺ عما يخالف الفصاحة والبلاغة من التشدق والتخلل في الكلام والتفيقه في الحديث والتكلف والتنطع والثرثرة والإكثار من الكلام في غير مواضعه: قال عليه الصلاة والسلام: "إن أبغضكم إليّ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون"[٤١].

وأما التخلل في الكلام: فهو إدارة اللسان حول الأسنان مبالغة في إظهار بلاغته وبيانه يصنع كما تصنع البقرة عند أكل الكلأ حيث تلفه بلسانها كما جاء في الحديث: "عن عبد الله بن عمر ﷺ: "إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه"[٤٢].

وأما التنطع: فهو إخراج الكلام من النطع (غار الفم) حيث موقع اللسان من الحنك، والمراد المبالغة والزيادة فيه والتكلف والتعمق والتفاصح قال عليه السلام: (هلك المتنطعون) أو (هلك المكثرون)[٤٣].

وأما التكلف: فهو تجشم الكلام على مشقة، أو الحديث فيما المتكلم جاهل به من

المعارف، أو الزيادة في الحديث فوق ما يحتمل ولذلك قال النبي ﷺ: (أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف)[٤٤].

والناظر في الحقل الدلالي للألفاظ السابقة يجد أنها تدور في فلك الابتعاد عما يخرج المتكلم عن دائرة البلاغة، وانصراف المتلقي عن الاستماع وبالتالي فشل الرسالة المراد إيصالها إلى المتلقي؛ فالثرثرة تؤدي إلى التخليط والوقوع في الخطأ؛ لأن من كثر كلامه كثر خطؤه. والتفيقه والتنطع والتشدق والتخلل تتضمن -بالإضافة إلى الرسالة التي يحملها الكلام- رسم هيئة للخطيب (المرسل) تستدعي امتعاض المرسل إليه؛ لما تحمله الهيئة من معنى الكبر والتعالي، وبالتالي تفقد الرسالة أهم موجبات إيصالها بالشكل السليم للمتلقي؛لانشغاله في عوامل جانبية كالتأمل والتفكر في هيئة المرسل وتعاظمه، وهذه الحالة أكثر موجبات إخفاق البليغ العربي تحديدا. والمعاني السابقة التي على البليغ أن يحترز منها لتكتمل جوانب بلاغته، كثر في أحاديثه ﷺ ما يؤكد خلافها لقوله: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"[٤٥]. وقوله لمعاذ بن جبل: "... ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟"[٤٦]. وفي حديث: "...ويبغض لكم ثلاثة: القيل والقال..."[٤٧]. وفي حديث عمار ابن ياسر: "أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقصر الخطب"[٤٨].

والمسائل السابقة أكثر ما يمكن حملها على الجانب الشفاهي من الأجناس الأدبية كالخطب والمناظرات والمحاضرات والندوات وما كان طريقه الخطاب المباشر، وقد استلهم هذه المعاني الجاحظ في كتابه البيان والتبيين فقال في هذا الفحوى: "ثم اعلم -أبقاك الله- أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عي يتكلف الخطابة ومن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة. ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبيانا يمازجه التزيد. إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ومن تشادق الأعرابي القح. وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ وفي التحبير والارتجال أنه البحر الذي لا ينزح والغمر الذي لا يسبر أيسر من انتحال الحصر المنخوب أنه في مسلاخ التام الموفر والجامع المحكك وإن كان النبي ﷺ قال: (إياي والتشادق). وقال: (أبغضكم إلي الثرثارون

المتفيهقون) وقال: (من بدا جفا)، وعاب الفدادين والمتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق ورحب الغلاصم وهدل الشفاة..."[٤٩] وقد استوحى النقاد القدامى هذه المعاني ونشروا فحوى كلامه ﷺ مستخدمين عباراتهم الخاصة وسبكهم الخاص مع تفامت في إصابة معنى المصطلح أو مجانبة الإصابة، فهذا ابن قتيبة يصف المتكلف من الشعراء بقوله: "فالمتكلف هو الذي قوم قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر"[٥٠]. ويورد قول سويد بن كراع (العكلي، شاعر فارس مقدم من شعراء الدولة الأموية). بهذه المناسبة:

أبيت بأبواب القوافي كأنما
أصادي بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما
يكون سحيرا أو بعيد فأهجعا
إذا خفت أن تروى علي رددتها
وراء التراقي خشية أن تطلعا
وجشمني خوف ابن عفان ردها
فثقفتها حولا جريدا ومربعا
وقد كان في نفسي عليها زيادة
فلم أر إلا أن أطيع وأسمعا[٥١]

على أن هناك من لا يرتضي فهم ابن قتيبة للتكلف ويدحضه كما نرى عند عز الدين إسماعيل بتعليقه على معنى التكلف عند ابن قتيبة حيث يقول: "والمفهوم السائد للأدب أنه صنعة، وحين نقول إنه صنعة فإننا نحذر من التباس كلمة الصنعة بالتكلف فليست الصنعة هي ما عرف بالتكلف، فنحن نقرأ أحيانا عبارة (تكلف الصنعة) مما يشعر بالتمييز بينهما. والصنعة قديمة في الشعر العربي عرفها الجاهليون وحفلوا بها، وكانت منهم أول مدرسة شعرية تهتم بالصنعة وبذل الجهد في العملية الإبداعية وقد يخلط ابن قتيبة بين معنى الصنعة والتكلف"[٥٢]. وما قاله ابن قتيبة لا يتناسب مع المعاني التي اثيرت حول التكلف المفهوم من الحديث.

ويصف الآمدي الشعر الحسن بمضادات التكلف والتقعر والتشدق والإغراب واستخدام الحوشي من الألفاظ بقوله: "وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه، المستعمل في مثله... فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف"[٥٣]. وبهذا المعنى يقول الجاحظ: "... فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في

القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة[٥٤]. ومما لا شك فيه أن ما ينسحب على الشعر في هذه القضايا أيضا ينسحب على النثر والأعمال الأدبية بالمقدار نفسه.

في جانب التراكيب والجمل:

يطالعنا أول ما يطالعنا في هذا الجانب إبداعاته ﷺ للكثير من التراكيب التي لم تسمع من قبل، وقد أورد الجاحظ مجموعة منها بقوله: "وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شاركه فيه أعجمي، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد مما صار مستعملا ومثلا سائرا[٥٥] فمن ذلك: قوله ﷺ: "يا خيل الله اركبي، وقوله: مات حتف أنفه، وقوله: لا تنتطح فيه عنزان، وقوله: الآن حمي الوطيس، -وقد عرف العرب هذا التركيب بمعنى اشتداد النار في الفرن لا غير ونجد أن النبي ﷺ قد استخدمه بمعنى جديد وهو اشتداد المعركة-، ومثلها كل الصيد في جوف الفرا- قالها لأبي سفيان- وهدنة على دخن، وجماعة على إقذاء، ولا يلسع المؤمن من جحر مرتين[٥٦]. وهذه الإبداعات تثري اللغة وتفسح المجال أمام المبدعين لينهلوا منها ويستخدموها في إبداعاتهم كما تحثهم على الاقتداء ومحاولة إثراء اللغة بإبداعات جديدة؛ فاللغة كالكائن الحي يحتاج إلى التطوير والتحديث وفق القواعد العامة والأصول الثابتة، وما أشبهها ساعتئذ بالشجرة المتجددة الاوراق والثمار ذات الأصل الثابت وفي القرآن: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم: ٢٤]

وقد شاع استخدام تراكيبه ﷺ على ألسنة الخطباء من ذلك قول الحارث بن حدان حين أمر بالكلام عن مقتل يزيد بن المهلب قال: "أيها الناس اتقوا الفتنة؛ فإنها تقبل بشبهة وتدبر ببيان، وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين"، وقول ابن الأشعث: "قد علمنا إن كنا نعلم، وفهمنا إن كنا نفهم أن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين"[٥٧].

الإشارة إلى أنواع ودرجات البيان: في قوله ﷺ: "إن من البيان لسحرا"، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله: "إن من البيان لسحرا أو إن بعض البيان لسحرا"[٥٨].

جاء في لسان العرب في باب الراء فصل السين: "وكل ما لطف مأخذه ودق، فهو سحر"[٥٩]. عند تحليل هذه العبارة النبوية نجد أنها تشير إلى تنوع البيان واختلاف درجاته وأن أعلى أنواعه ذلك البيان الذي يأسرك

ويأخذ بلبك ويجعلك على قناعة من مراد صاحبه فهو يأسرك بكلامه إلى درجة قد يقلب فيها الحقائق ويجعلك مقتنعا بما ذهب إليه، وهو بهذا العمل أشبه ما يكون بالساحر الموهم بالشيء أو الذي يوهمك ويظهر لك الشيء على غير حقيقته بسبب روعة بيانه ودقة ولطف مداخله ومعانيه الدالة على بلاغة صاحبه وقدراته على التلاعب بالألفاظ. وقد يكون المعنى التوهيم والمخادعة وتزوير الحقائق وجعل العيون تتخيل الشيء على غير حقيقته، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ويؤيد ذلك ما ورد عن الأزهري في اللسان أن أصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره[٦٠]، وقد يكون التفسير الأول هو الأكثر مناسبة للواقعة التي قيلت بها هذه الجملة (إن من البيان لسحرا)؛ فقد أورد الجاحظ أن النبي ﷺ قد سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر وهما من سادات بني تميم فقال: (مانع لحوزته مطاع في أدنيه "فقال الزبرقان: "أما أنه قد علم أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي" فقال عمرو: أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر زمر المروءة، لئيم الحال، حديث الغنى "فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال: "يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت؛ وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة"، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: "إن من البيان لسحرا"[٦١]. وقد فسر أبو عبيد المعنى بقوله: "كأن المعنى -والله أعلم- أنه يبلغ من ثنائه أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه قد سحر السامعين بذلك"[٦٢]. فالسحر في البيان يعادل الروعة والجاذبية وقوة التأثير ومصادرة القلوب والأحاسيس والانفعالات.

النهي عن السجع: ورد عنه ﷺ عبارة: (أسجع كسجع الجاهلية) وفي رواية (أسجع كسجع الكهان) و(أسجاعة كسجاعة الجاهلية)[٦٣] و(إنما هذا من إخوان الكهان)[٦٤] وغيرها من العبارات تدور في الفلك نفسه مما ورد في كتب الحديث النبوي الشريف وشروحاته. ومناسبتها أن رجلا قال للنبي (عليه الصلاة والسلام): "كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس ذلك دمه يطل"[٦٥]. وذلك في معرض الدفع لإبطال حكم النبي ﷺ في امرأة حامل ضربت

بعمود فسطاط من قبل امرأة أخرى، فقتلت وأسقط جنينها فجعل النبي دية المقتولة على عصبة القاتلة، وغرة (أمة أو عبد) لما في بطنها. وفي صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة ﷺ: "...فقال رجل من عصبة القاتلة: أنغرم دية من لا أكل ولا شرب ولا استهل، فمثل ذلك يطل. فقال رسول الله ﷺ: أسجع كسجع الأعراب"(٦٦).

لابد- قبل الخوض في المعايير الفنية المتعلقة بالسجع- من الإشارة إلى أن النثر العربي الجاهلي قد عرف السجع وتعامل به، والناظر إلى ما ورد عنهم من فنون نثرية يجد هذه الظاهرة بوضوح، وهم يعدون السجع بالمنثور مقابلا للوزن والقوافي في الشعر، ولعل استعمال السجع في منثورهم من باب تخفيف الوطأة في تجشم حفظ المعاني، وجعلها أكثر سلاسة؛ لما هو مركوز في الطباع أن الكلام ذي الصبغة الموسيقية أسهل حفظا من غيره، ويورد الجاحظ جواب عبد الصمد بن الفضل الرقاشي عندما سئل: "لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر؛ فالحفظ إليه أسرع، والأذن لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشرهُ، ولا ضاع من الموزون عشرهُ"(٦٧) ومن الأمثلة على خطبهم المستخدم فيها السجع ما روي عن النبي قوله: "كأني أنظر إلى قس بن ساعدة الإيادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول: أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، نجوم تمور، وبحار تغور، وسقف مرفوع، ومهاد موضوع، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا؟ يحلف قس يمينا غير كاذبة إن لله دينا هو خير من الدين الذي أنتم عليه.."(٦٨).

وقد اختلفت الآراء حول تفسير موقفه ﷺ من السجع هل هو مذموم أم مقبول والذي أرجحه ما ذهب إليه كثير من المحققين من أن المنهي عنه والمذموم، هو السجع المتكلف في معرض مدافعة الحق، وأما ما يقع عفوا بلا تكلف في الأمور المباحة فجائز، والمحمود منه: ما جاء عفوا في حق، ودونه: ما جاء متكلفا في حق، والمذموم منه: ما يقع

متكلفا في باطل، ودونه: ما يقع عفوا في باطل[٦٩]. وهذا يعني أن المنظور إليه في السجع من زاويتين: الشكل ومقدار الإصابة في مناسبة المعنى باعتبار الواقع. ومن هذه المقولة النبوية عن السجع تبارت أقلام النقاد والبلاغيين وغيرهم من أهل الفكر والشريعة في توظيف هذا المصطلح والتوسع في مسائله من حيث القبول والرفض والتخصيص والتقييد والتأويل والحمل على الظاهر والتغيير والاستبدال بمصطلح الفاصلة، إلى أن عد بابا من أبواب علم البديع، فوضعت له مجموعة من المعاني اللغوية والاصطلاحية والأقسام فقالوا: سجع يسجع سجعا: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا، والسجع: الكلام المقفى، وسجع الرجل: إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن[٧٠]. والسجع: تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهو على ثلاثة أضرب: مطرف ومتوازي وترصيع...[٧١] وميزوا بينه وبين الفواصل، فعدوا الفواصل بلاغة، والسجع عيا. وقد ورد السجع في كلامه ﷺ بكثرة مما يؤذن باستخدامه، وأن المنهي عنه منه نوع خاص مقيد بسجع الكهان، ومما ورد من أحاديثه المسجوعة: "اللهم إني أدرأ بك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم "وقوله: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع"[٧٢].

حثه ﷺ على الإيجاز:

ورد عنه ﷺ أقوال تشير إلى اهتمامه بقضية الإيجاز، وأنه من البلاغة، فقد جاء في الخبر أن أعرابياً تكلم عند رسول الله ﷺ وطَول، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: كم دون لسانك من حجاب؟ قال: شفتاي وأسناني. قال: فإن الله عز وجل يكره الانبعاق في الكلام (الانصباب فيه بشدة) فنضر الله وجه امرئ أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته". وفي رواية عن عمرو بن دينار: "أما كان في هذا ما يرد من كلامك، إن من البيان لسحرا". وفي الحديث قال أبو وائل: خطبنا عمار فأوجز وأبلغ، فلما نزل قلت: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تنفست، فقال: إني سمعت رسول الله يقول: "إن طول صلاة الرجل، وقصر خطبته، مئنة من فقهه، فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطب، وإن من البيان سحرا"[٧٣].

كما ورد عنه ﷺ مجموعة من الأحاديث التي تطلب اختصار الكلام على ما يفيد، وإلا فالصمت، منها: حديث أبي هريرة "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو

ليصمت"[٧٤]. وحديث: "رحم الله امرأ قال خيرا فغنم، أو سكت فسلم"[٧٥]. وقال ابن الأعرابي...: "تكلم رجل عند النبي ﷺ فخطل في كلامه، فقال النبي ﷺ: "ما أعطي العبد شرا من طلاقة اللسان"[٧٦]. وقد تمثل الصحابة (رضوان الله عليهم) معاني ما ورد عن النبي ﷺ في هذا الجانب، فكانوا يقتصرون في كلامهم على ما هو مفيد بأسلوب بليغ، ويحذرون من الإطالة والتطويل، ومخاطر الزلل في اللسان، فهذا أبو بكر ﷺ يقول عن لسانه: "هذا الذي أوردني الموارد"[٧٧]. وهذا عمر ﷺ يمدح زهيرا الشاعر؛ لأنه لا يعاظل في الكلام، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه، قال لقوم من العرب: "أشعر شعرائكم من لم يعاظل الكلام ولم يتتبع حوشيه، -أي: لم يحمل بعضه على بعض- ولم يتكلم بالرجيع من القول ولم يكرر اللفظ والمعنى"[٧٨]. وقال ابن مسعود ﷺ: "أنذركم فضول المنطق"[٧٩]. وكان عمرو ابن عبيد لا يكاد يتكلم، فإذا تكلم لم يكد يطيل، وكان يقول: لا خير في المتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمتكلم أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف" ورد عند الجاحظ:

"وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره". وحكى المفضل: قلت لأعرابي: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غير خطل"[٨٠] وانتشرت مقالة الإيجاز ووعى معانيها المهتمين بشأن البيان إلى درجة أصبح كثيرون يفضلون الصمت على الكلام حتى جرت الأمثال بهذا المعنى أورد الجاحظ منها: "لو كان الكلام من فضة، لكان السكوت من ذهب" و"اللسان سبع عقور" و"مقتل الرجل بين فكيه ولحييه"، وسئل أعرابي يجالس الشعبي عن طول صمته فقال: "أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم"[٨١].

إن الخطل والتطويل في الكلام يخرج المرء عن حد البلاغة؛ فما من شك أن لكل كلام غاية ينتهي إليها، ومن فقه المتحدث أن يصل إلى غايته ومطلوبه بأقصر الطرق وأكثرها مناسبة للمقام، والتطويل يجعل من الوصول إلى الغاية أمرا بعيدا، كما أن للسامع المخاطب نشاطا محدودا، والإطالة تستنفد نشاطه فينصرف ذهنه عن غاية المتكلم ويدخل في حيز الاستثقال للكلام ومجه مما يفوت الهدف على المتحدث، وهذا يعني نفي البلاغة عنه. وقد أورد الجاحظ أن ناسا قالوا لابن عمر ﷺ: ادع لنا بدعوات. فقال: "اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا" فقالوا: لو زدتنا يا أبا عبدالرحمن. قال: "نعوذ بالله

من الإسهاب[٨٢].

وقد برع النقاد والبلاغيون في استغلال مرامي رسول الله ﷺ وفتقوا أكمام الكلام وبينوه وفصلوه واستنبطوا له أحكاما نجدها مبثوثة في كتب النقد والبلاغة، فقسموا الإيجاز إلى إيجاز حذف وهو أن نحذف بعض أجزاء الكلام المعبر به عن المعنى المراد، وهذا المحذوف قد يكون كلمة أجملة ولابد للمحذوف أن يستغني الكلام عنه فيفهم بدونه، ولا بد له من قرينة تدل عليه. وإيجاز قصر وهو تضمين الألفاظ القليلة المعاني الكثيرة من غير حذف[٨٣]، وفرقوا بينه وبين التطويل والحشو والإطناب والمساواة[٨٤] وغيرها مما رست عليه قواعد البلاغيين والنقاد .

ومن جهة أخرى يمكننا الاستنباط من حديثه ﷺ مع الأعرابي الذي أطال في الكلام مسألة بيانية أخرى، وهي ضرورة أن يتناسب الكلام نوعا وكما مع المقام الوارد فيه، فيستحسن الإيجاز في مقام مخاطبة المسئولين نظرا لأن الوقت عندهم ذو قيمة عالية، والتطويل يضيع الفرص في عمل ما هو مفيد عندهم، وقد تحدث البلاغيون والنقاد في مسألة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ومراعاة المقام، وبينوا أن لكل مقام مقال.

النهي عن الغلو والمبالغة:

تتناغم الفلسفة الإسلامية في نظرتها للحياة والوجود بكل أبعاده، وتقوم على مبدأ الوسطية والاعتدال في كل شيء، وتستبعد تجاوز الحد والغلو والإغراق، بل تدعو إلى ضده، وهذه القضية كما نجد انطباقها على أمور الدين والعبادة- كما في أقواله الكثيرة ﷺ: "إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو"[٨٥]. لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدالله ورسوله"[٨٦] (والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه) وعن أنس ﷺ أن أناسا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال "يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي انزلني الله عز وجل"[٨٧]- فإنها تنطبق على أمور الحياة الأخرى ومنها الظاهرة اللغوية؛ فقد أورد الجاحظ في بيانه بسند... عن مطرف ابن عبد الله وعن أبيه قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطولنا علينا طولا، وأنت الجفنة الغراء. فقال رسول الله ﷺ: "أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزنكم الشيطان، فإنما أنا عبدالله ورسوله"[٨٨]. أما

قوله ﷺ: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثا: فيفسرها النووي بقوله: "... أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم. "وهم المتعمقون المتشددون في غير مواضع التشديد[٨٩]. ونهيه ﷺ يتناغم مع ما ورد في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[النساء: ١٧١] وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧] والآيات في النهي عن مدح عزير والمسيح عليهما السلام لدرجة تخرجهما عن حدود البشرية. وعلى مذهب الوسطية في التعبير سار الصحابة (رضوان الله عليهم)؛ فهذا ابن الخطاب رضي الله عنه يفضل زهيرا على غيره من الشعراء لكونه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ولا يعاظل في الكلام. واستمر الحال في عهد الدولة الأموية على هذا النحو، فهذا الجاحظ يورد قول خالد بن عبد الله القسري لعمر بن عبد العزيز: من كانت الخلافة زانته فقد زينتها، ومن كانت شرفته فقد شرفتها. فأنت كما قال الشاعر (الأحوص الأنصاري):

وتزيدين أطيب الطيب طيبا
أن تمسيه أين مثلك أينا
وإذا الدر زان حسن وجوه
كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر بن عبد العزيز: إن صاحبكم أعطي مقولا، ولم يعط معقولا[٩٠]. وهذا بعينه تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لا يكاد يبلغها على حد تعبير أبي هلال العسكري في الصناعتين. وفي العصر العباسي نجد النقاد والبلاغيين يتلقفون هذه المسألة ويلوكونها بعقولهم بالتحليل والتفصيل والمقارنة حتى أخرجوا بابا من أبواب البديع بهذا الاسم (الغلو)، وتحدثوا بالتفصيل عن مقاربات هذا المصطلح في حقله الدلالي كالحديث عن الإغراق والمبالغة والإفراط، وقسموا الغلو إلى مردود ومقبول وعدوا من المقبول قول النابغة الجعدي بحضرة المصطفى ﷺ:

بلغنا السماء نجدة وتكرما
وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً[٩١]

وفي موسوعة الحديث: أنشد النابغة الجعدي:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا
إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا
وَتُنْكِرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا
مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى تَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا
وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا
صِحَاحًا وَلا مُسْتَنْكِرٍ أَنْ تُعَقَّرَا

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاؤُنَا
وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "إِلَى أَيْنَ يَا أَبَا لَيْلَى؟!!"، قُلْتُ: إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: نَعَمْ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ"[٩٢].

وغيرها من المسائل التي جعلت منه مبحثا متكامل المسائل، ولا يكاد كتاب نقدي أو بلاغي من كتب القدماء إلا وتعرض لمسائله، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر هذا ابن طباطبا يتحدث في كتابه (عيار الشعر) عن الإغراق ويذكر الأبيات التي أغرق قائلوها منها قول الطرماح ابن حكيم: من شعراء الدولة الأموية عاش بالشام واعتنق مذهب الأزارقة:

ولو أن حرقوصا يزق مكة
إذا نهلت منه تميم وعلت
ولو أن برغوثا علا ظهر نملة
يكر على صفي تميم لولت
ولو ان أم العنكبوت بنت لهم
مظلتها يوم الندى لاستظلت[٩٣]

كما تحدث عن الغلو تحت عنوان التشبيهات البعيدة من ذلك قول النابغة:

تخدى بهم أدم كأن رحالها
علق أريق على متون صوار[٩٤]

وقول خفاف بن ندبه:

أبقى لها التعداء من عتداتها
ومتونها كخيوطه الكتان

والعتدات: القوائم. أراد أن قوائمها دقت حتى عادت كأنها الخيوط[٩٥].

وحتى يبقى النقاد والبلاغيون المبدعين في حيز الوسطية بعيدين عن الغلو، استنبطوا ما يسمى بعمود الشعر، وقد بينه المرزوقي في مقدمته في شرح المعلقات، وأكده القاضي الجرجاني في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه حيث يقول: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقانته. وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته. ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض"[٩٦].

بناء هيكلية الخطبة:

من الأمور التي استحدثت في عصره- من خلال توجيهاته ﷺ- التشكيل المفصل لأجزاء الخطبة بحيث يستطيع السامع او القارئ التمييز بين ما هو مقدمة وبين ما هو

موضوع وبين ما يعد خاتمة، وهذه الهيكلية تعد أحد ركائز التغيير عن الخطبة الجاهلية، والناظر في الخطبة الجاهلية يجد انها تشكل حلقة لا يدرى منها إلا نقطة البدء والانتهاء فلا وضوح في التقسيم وكأن الكلام يصب صبا على وتيرة واحدة. أما من حيث الموضوعات والخصائص الفنية، فنجد أيضا نوعا من الاختلاف بين خطب الرسول ﷺ والخطب الجاهلية، فمن حيث الموضوعات نجد الخطابة الجاهلية تدور حول قضايا الحرب والحماسة والصلح والمنافرات والزواج، أما موضوعات الخطابة الإسلامية فقد جعلت التركيز ينصب على الخطابة الدينية أكثر من بقية الموضوعات. أما من حيث الخصائص الفنية فنجد الخطبة الجاهلية على درجة كبيرة من الإيجاز مع تضمنها مجموعة من الحكم والأمثال والاعتماد على السجع وانتفاء الاستطراد مع الاستغناء عن المقدمات ووحشية الألفاظ ومن الأمثلة على ذلك: خطبة هانئ بن قبيصة الشيباني (قائد المعركة) في يوم ذي قار، وخطبة قس ابن ساعدة الإيادي في سوق عكاظ التي رواها النبي ﷺ ورواها لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه"[٩٧].

أما من حيث الخصائص الفنية للخطبة الإسلامية، فنجد ابتعاد الخطبة عن وحشي الألفاظ وتعقيدات المعاني ثم الخلو من السجع إلا ما كان عفو الخاطر مما يقتضيه المعنى، بالإضافة إلى الإيجاز غير المخل، ناهيك عن اشتمالها على مقومات الصور الفنية والحقائق الصادقة وسلاسة الألفاظ. وهذه المعايير الجديدة مستفادة من خطبه ﷺ.

ومن الأمور التي أحدثها ﷺ لتحسين أمر الخطابة توجيه أهل القول وتعليمهم ضرورة الابتداء بالبسملة والحمد لله في مقدمة الكلام، وهو ما يعين السامع على تهيئة النفس لتلقي الكلام، فهذا البدء أشبه ما يكون بأدوات التنبيه، ومما ورد عنه من أقوال بهذا الشأن قوله في الحديث المرفوع عن أبي هريرة ﷺ: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر" أخرجه أبو داوود وابن ماجة في كتاب روضة المحدثين. وفي روايات: لا يبتدأ فيه بحمد الله، وفي روايات زيادة لفظ: (والصلاة علي). هذه الإرشادات منه ﷺ وعاها الناس في عصر الصحابة وما بعده بحيث طوروا الخطابة، وتحدثوا عن أنواعها ومعايير جودتها ونواقض الجودة، وعن أحوال الخطيب ومقاييسه وصفاته حتى أسنان الخطيب وجهازه النطقي وقع تحت مقاييسهم ومواصفاتهم.

ومن أبرز مواصفات الخطبة عندهم ضرورة اشتمالها على شيء من كتاب الله أو أحاديث الرسول ﷺ وإلا وصفت بالبتراء أو الشوهاء قال الجاحظ: "وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع"[٩٨] وينقل عن الهيثم بن عدي أن عمران بن حطان[٩٩]، قال: "إن أول خطبة خطبتها عند زياد- فأعجب بها الناس وشهدها عمي وأبي، ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن"[١٠٠]. ثم إن أمر الخطابة لم يتوقف أثره عند هذا الحد بل تعدى إلى إنشاء مدارس لتعليم الخطابة، فقد كان الخطباء خاصة أصحاب الوعظ منهم يتحلق حولهم تلاميذهم يدربونهم على إحسان الأداء وقرع الأدلة بالأدلة، ووصل بهم الحال إلى بلوغ الغاية من روعة البيان، ومنهم غيلان الدمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء، وجاء بعدهم من تحفظ كلامهم حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية[١٠١].

إبراز الخطابة كجنس أدبي ذي أهمية بالغة: لقد استخدمها النبي ﷺ وسيلة بارزة في الدعوة إلى الله، وسيلة للدفاع عن الإسلام مستعينا بمن يحسن هذه الفنون، فقد ورد في سيرة ابن هشام أن وفد تميم قدموا بين يديه ﷺ من شعرهم وبعض خطبهم يفاخرون فقال شاعرهم الزبرقان بن بدر:

أتيناكم كيما يعلم الناس فضلنا
إذا احتفلوا عند احتضار المواسم
بأنا فروع الناس في كل موطن
وأن ليس في أرض الحجاز كدارم

فأجابه حسان رضي الله عنه:

هل المجد إلا السؤدد العود والندى
وجاه الملوك واحتمال العظائم
نصرنا وآوينا النبي محمدا
على أنف راض من معد وراغم[١٠٢]

وفي رواية ابن القيم قال الزبرقان:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البيع

فأجابه حسان:

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع[١٠٣]

وخطب عطارد بن حاجب التميمي[١٠٤] فقال: "الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو

اهله الذي جعلنا ملوكا... "فأمر النبي ﷺ ثابت بن قيس بن شماس فرد عليه: "الحمد لله الذي السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه..."[١٠٥].

فلما فرغ قال الأقرع بن حابس: "وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، فلما فرغ القوم أسلموا"[١٠٦].

التنوع في الأداء الصوتي وطرق الإلقاء لاختلاف المقام:

ورد عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أنه قال: "كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش"[١٠٧].

وفي حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ نهى عن رفع الصوت في الدعاء معللا: "فإنكم لا تدعون أصما ولا غائبا"[١٠٨].

وفي حديث ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: "إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة يناجي ربه فليعلم أحدكم ما يناجي ربه ولا يجهر بعضكم على بعض في الصلاة" وفي رواية "ولا ترفعوا أصواتكم فتؤذوا المؤمنين"[١٠٩].

المتمعن في الأحاديث السابقة قد يرى في ظاهرها التعارض، لكن عند التحقيق يتبين أن اختلاف الأحكام فيها يعود إلى اختلاف المقامات؛ حيث إن لكل مقام مقال والبلاغة تقتضي مراعاة احوال المتلقين فانفعالات الخطيب وتطلعاته ومعانيه التي يريد إيصالها للمتلقين تتفاوت ما بين خبر وإنشاء واستفهام وتوبيخ وتهويل وتفخيم وتهوين وتعجيب ووعد ووعيد وتحزين وتشجيع وحماسة وكل هذه المعاني وغيرها تتطلب نوعا مناسبا من درجة الصوت وطريقة الإلقاء واستخدام الإشارات؛ فيستخدم من الصوت لينه وشدته ورخاوته وعلوه ومده وتقصيره وتكراره وإفراده حسب ما يعين على فهم المعنى المراد، فالصوت في كثير من الأحيان ينم عن شخصية صاحبه ويعين على ترجمة معانيه وتوصيلها بصورة أدق.

إن جريان الخطبة على وتيرة واحدة في الأداء قد يتطلبه مقام من المقامات لا كل المقامات، واستخدامه في كل المقامات خروج عن حد البلاغة لما يبعثه من الملل والسأم في نفس المتلقي. قال النووي: "يستحب للخطيب أن يفخم امر الخطبة، ويرفع صوته ويجزل كلامه، ويكون مطابقا للفصل الذي يتكلم فيه من ترغيب وترهيب"[١١٠]. ووقوع الذم على المتكلم عند مخالفة مقتضيات المقام وما يناسبها، فقد جاء التوجيه

الإلهي موضحا مبادئ استخدام الصوت في عدة آيات منها:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، و﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] و﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[الحجرات: ٢]. ومن المعلوم أن السنة المطهرة ما هي إلا تفسير لما جاء في كتاب الله.

البيئة والأدب:

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قول النبي ﷺ: "من بدا جفا..."[١١١] وأورد هذا الحديث جماعة من المفسرين عند تفسير قوله تعالى فيما يتعلق بالأعراب من سورة التوبة: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٩٧] ومجمل الكلام يشير إلى خشونة الأعراب وغلظهم في التعامل، واستخدامهم لوحشي الكلام، ووعورة التعبير عن المقاصد؛ لذلك كانت هذه القاعدة العامة منه ﷺ: "من بدا جفا" بمعنى من سكن البادية صار فيه جفاء وغلظة طبع كما هو حال الأعراب. أما البلاغيون والنقاد فقد استفادوا من إشارته هذه في بيان أثر البيئة على الإنسان وقوتها في تكوينه اللغوي والأدبي؛ فالشدة والصعاب في المكان يتبعها شدة وغلظ في طرق الأداء القولي.

ومن أوائل النقاد الذين أشاروا إلى أثر البيئة ابن سلام الجمحي في طبقاته حيث جعل التقسيم بالنظر إلى المكان أحد ركائز التفاضل بين الشعراء، فذكر شعراء المدينة وشعراء مكة والطائف، وتحدث عن لين شعر عدي بن زيد؛ لأنه سكن الحيرة وراكز الريف[١١٢]، وذلك لما انقدح في ذهنه من أثر البيئة في التكوين الشعري لدى الشعراء[١١٣]، وكذلك الحال عند غيره من النقاد أمثال ابن قتيبة والقاضي الجرجاني والصولي وقدامة وغيرهم.

واستمر الحديث عن أثر البيئة عند النقاد عبر العصور حتى عصرنا الحديث فنجد النقاد أيضا يثيرون هذه القضية؛ فهذا أحمد الشايب يتحدث عن أثر البيئة في تكوين الذوق الأدبي ويشير إلى قصة علي بن الجهم لما ورد على المتوكل في بغداد وأنشده مادحا:

أنت كالدلو لا عدمتك دلوا

من كثير العطايا قليل الذنوب

أنت كالكلب في حفاظك للود

وكـالتيس في قـراع الخطـوب

فهم بعض الحضور بقتله، فقال الخليفة: خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ... فلما أقام (الشاعر) في الحضر بضع سنين، قال الشعر المتزن الملائم للذوق الحضري الجديد والبيئة الطارئة مثل قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت

ولكن زدن جمرا على جمر[١١٤]

وفي الأمم الأوربية نجد الناقد هيبوليت تين يعزي العبقرية في الأدب إلى ثلاثة عوامل هي: البيئة والزمن والجنس[١١٥].

مقتضيات المقام:

من القضايا التي بينها النبي ﷺ من المسائل المتعلقة بالبلاغة والنقد ما له مساس مباشر بمقتضيات المقام والتي هي جزء من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وقد قسم العلماء الخطاب إلى مجموعة من الجزئيات منها: المرسل والمرسل إليه والرسالة والوعاء الناقل، إلخ...، وقد اشترطوا لفهم الرسالة الدراية الواعية من المرسل في أحوال وظروف المرسل إليه من حيث البيئة والثقافة والحالة النفسية والذكاء والفطنة وغيرها من المسائل، وعدوا عدم إدراك ذلك إخفاقا في جانب بلاغة الخطاب، وبهذا المعنى نجد مجموعة من الإشارات في بعض أحاديث الرسول ﷺ منها ما أورده البخاري عن علي موقوفا: "حدثوا الناس بما يعرفون. أتحبون أن يكذب الله ورسوله"[١١٦] وفي مسلم عن ابن مسعود قال: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"[١١٧]. وفي كشف الخفاء للعجلوني: "أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم"[١١٨].

فلا بد إذن من مراعاة أحوال المخاطبين عند سرد الخطاب، فمن مراعاة أحوال الثقافة سؤال النبي ﷺ للجارية: أين الله فقالت: في السماء فقال: إنها مؤمنة[١١٩]، ومن مراعاة البيئة رسالته ﷺ إلى وائل ابن حجر الكندي ومنها "...إلى الأقيال العباهلة والأرواح المشابيب ومنها: وفي التيعة شاة لا مقورة الألياط ولا ضناك، وأنطوا الثبجة، وفي السيوب الخمس، ومن زنى من بكر فاصقعوه مائة، واستوفضوه عاما..."[١٢٠] ومن المعلوم أن الأقبال العباهلة هم ملوك حمير التي تختلف لهجتها وتراكيبها إلى حد ما عن لغة الشمال، ويؤكد ذلك إجابته ﷺ للوافد من حضرموت: هل من امبر امصيام في امسفر، فأجاب النبي ﷺ: ليس من امبر امصيام في امسفر[١٢١]. ومن مقتضيات المقام أيضا ما نجده في إبقائه

ﷺ على وضع الكعبة كما هي دون تغيير لمراعاة حداثة الإسلام في الناس، فقد ورد قوله لعائشة (رضي الله عنها): "يا عائشة، لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة فجعلتها بابين: باب يدخل الناس وباب يخرجون"[١٢٢]. وقد فهم البخاري من هذا الحديث ضرورة مراعاة المقام في الفهم فترجم له بقوله: باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقع في أشد منه. كما فهم كثير من العلماء هذا الفهم وعدوا الحديث من أعمدة الموازنة بين المصالح، وأنه لا بد من تقييم قدرة فهم السامع خوفا من الوقوع بما هو أشد لقصور فهمه عنه. وفي حديث آخر نجد أن النبي ﷺ قد خص معاذا بحديث؛ وذلك لعلو فهمه دون كثيرين غيره أخرجه البخاري ونصه: "ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله من قلبه إلا حرمه الله على النار" فقال معاذ يا رسول الله: ألا أخبر به الناس فيستبشرون؟ قال: إذن يتكلوا. "وأخبر به معاذ عند موته تأثماً"[١٢٣]. وما من شك أن الفائدة الظاهرة من هذا الحديث يتفاوتون بدرجة الفهم، وأن الخطاب لا يحسن به الإبلاغ للجميع مخافة الفهم الخاطئ.

وقد استفاد أرباب البيان من أحاديثه، وجعلوا منها قواعد للبلاغة العربية حيث عرفوها: بمطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[١٢٤]. وأبرز من تناول مسألة المقام ومقتضياته رسالة بشر ابن المعتمر التي أوردها الجاحظ في بيانه منها: "... فكن في ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"[١٢٥]. وفي كتاب الإحياء للغزالي: "كل (بكسر الكاف) لكل عبد بمقدار عقله، وزن له بميزان فهمه، حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار"[١٢٦].

البيان بالحركة أو الإشارة:

ومن توجيهاته البلاغية ﷺ في جانب البديعيات، ما أطلق عليه عند أرباب البديع بالقوافي الحسية، ويتمثل في قيام الحركة أو الإشارة بالنيابة عن اللفظ، وعدوا منه قول النبي ﷺ: "بعثت أنا والساعة كهاتين- وأشار بالسبابة والوسطى-"[١٢٧] كما يحمل عليه

إشارته بعينه لعائشة (رضي الله عنها) التي فهمت منها حاجته إلى السواك وهو في النزع الأخير من حياته ﷺ، ومنه ما رواه عنه معاذ بن جبل: "عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال، ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدثه أو منكبه ثم قال: إن هذا لحق كما أنك ها هنا، أو كما أنك قاعد"[١٢٨]. ومنه قوله: "أنا وكافل اليتيم كهاتين وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى"[١٢٩]. و"المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه"[١٣٠]. و"التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات"[١٣١]. وحديثه عن الكبائر وهي: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: "ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت"[١٣٢]. ومنه قوله ﷺ في حديث زينب: "ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه- وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها-"[١٣٣]، ومنه إشارته ﷺ إلى عينه وأذنه عند قراءته: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرَۢا﴾[النساء: ٥٨].[١٣٤]

ما من شك أن البيان مع استخدام الإشارة أثناء الكلام ملفت للنظر، طارد للشرود الذهني، يجعل المخاطب أكثر انتباها وتركيزا واستمتاعا بمرامي الكلام من خلال استخدامه لأكثر من حاسة عند متابعة المتكلم خاصة حاستي السمع والبصر، وما من شك أن استخدام أكثر من حاسة كما هو مقر في العلوم التربوية يجعل من النص أكثر فهما ووضوحا، ويعين على تأكيد بعض جوانب الكلام، وقد طور هذا النوع عند البديعيين واستخدم في الشعر على نحو يسترعي الانتباه مع حصول المتعة الجمالية عند التلقي، لكنه في معظمه بطريقة صناعية يعمل فيها الفكر أكثر من عمل العواطف.

والفكرة في القوافي الحِسية أن المبدع الفني يجعل الحركة أو الإشارة تنوبُ عن اللفظ في موضع القافية مُوقعَّة على عروضها، وهو نهاية في الظرف والملاحة؛ لأن من المعاني ما تكُون فيهِ الإشارة أو الحركة أبلغ من اللفظ دِلالة، وأبدعُ موقعاً، وأحسَنُ إطراباً ومِثالُه قول أحدِهم:

ظَفِرتُ بِمعشُوقٍ لهُ الحُسنُ حُلةٌ
فَقَبلتُهُ شفعاً وقُلتُ لهُ...

فقـالَ أتَهـوانِي؟ فقُلـتُ لـهُ: نعـم
فقَالَ ومنْ غيرِي ؟ فقُلـت لـه...

البيتان مـن الطويـل، وقـد جعـل فاقيـة البيت الأول صوت القبلة مُكرراً مـرتين كمـا يدُل عليه قوله (شـفعاً) وقافيـة البيـت الثـاني هي الصوت الصادر من الإنسان والدال على النفي مُكرراً أيضاً.. وهو ما ينشـأ عـن القـرع بطرف اللسان على أطراف الثنيتين المتقـدمتين من أعلى الثغر، وليس في البيتين من الحُسـن كهذه المليحة الـتي أبـدعها قائـل البيـت، ولمـا كانت مما لا سـبيل إلى كتابتـه بـالخط صـارت أملحُ وأجود. (١٣٥)

ومن هذه القوافي قول الشاعر:

ولقـد قُلـتُ للمليحـةِ قُـولي
مـــن بعِيـــدٍ لِمـــن يُحِبُـــك
فأشـــارت بمِعصـــمٍ وبنـــان
أيُهـــا العاشِـــقُ المُتـــيَّمُ....

والبيتان من الخفيف، وعجُز كـل منهمـا يـنقُصُ سـببين خفـيفين، فجعـل تمـام البيـت الأول حركة اليد التي يُشار إليها بمعـني: أقبـل مُكررة، وهي تُوازن السببين في امتداد الـزمن، وجعل تمام البيت الثاني حركة اليد التي يُشـار بهـا بمعـني: اذهـب، والقافيتـان تسـتخدمان حاسة البصر (١٣٦).

وهذه الناحية من طـرق الخطـاب تتنـوع فيهـا الأسـاليب مـا بـين الكـلام والتطبيـق بالإشارة وهو ما تحتويه البلاغة وبهـذا المعنـى يقول الشايب: "...فالبلاغة تحوي هذه الناحيـة التطبيقية التي تبـدوا واضـحة في الملائمـة بـين الكلام وبين حاجة القارئ أو السامع في هـذه الأحوال المتباينة؛ فالخطابة لها موقفها ورجالهـا وأسـاليبها، والكتابـة تحسـن حيـث لا يحسـن الشعر، والحوار يجود حيث لا تنفـع المحاضـرة بشيء حتى حركات الخطيب والممثل كثيرا مـا تكون جزءا من التعبير البلاغي (١٣٧)".

الخلاصة وأهم النتائج:

يتبين لنا مما سبق:

١- أن جهودا كبيرة مبذولة في تقعيد المفـاهيم المتعلقة بالنقد والبلاغة في جانب الأنواع النثريـة المعروفـة في عصـره ﷺ، وأنهـا ذات حيـز يتناسـب مـع اهميـة الأدب وأثره على النفس البشرية.

٢- أن هـذه القواعـد والمعـايير تتنـاغم مـع النظـرة الإسـلامية الشـاملة للكـون والحياة، وهي جزء لا يتجزأ من منظومـة الفلسفة الإسلامية العالمية.

٣- أن ما يتعلـق بالمضـامين في هـذه الأنـواع النثرية يعد محور القبول إذ يجب أن يخدم تطـور الإنسـان ورفعتـه كإنسـان لا أن ينزل بـه إلى مصـاف المخلوقـات الأقـل

قيمة.

٤- أن المضامين وحدها غير كافية لجعل العمل الأدبي النثري مقبولا.

٥- أن النظرة الجمالية للعمل الأدبي تنبع من شكله ومضمونه معا.

٦- أن الأدب الحقيقي ليس في اجترار اللغة بقدر ما هو محاولة تشكيل إبداعي.

من خلال استغلال معطياتها وصيغها لإنتاج معطيات جديدة متولدة.

الهوامش:

(١) شوقي ضيف. البلاغة تطور وتاريخ، ط ٦، دارالمعارف، القاهرة، ص١٤.

(٢) السابق، ص١٤.

(٣) البيت:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا

وبذاك خبرنا الغراب الأسود

والإقواء عيب من عيوب القافية حيث الانتقال من الكسر إلى الضم، علما أن القصيدة ميمية مكسورة.

(٤) البيت منسوب للمسيب بن علس أو المتلمس وهو:

وقد اتناسى الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية مكدم

انظر: عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط ٤، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص٢١.

(٥) السابق، ص٢٦.

(٦) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص١١. وذلك نقدا لأبيات حسان بن ثابت:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق

أكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

(٧) مطلعا القصيدتين هما:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

طحا بك قلب في الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشتيب

(٨) عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٣٢.

(٩) إحسان عباس. تاريخ النقد الادبي عند العرب، ط ٤، دار الثقافة- بيروت، هـ- ١٩٨٣م، ص١٣.

(١٠) ينظر عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص٢٢.

(١١) ينظرالسابق، ص٢٤. والغلو يظهر في بعد المسافة بين يحجر، وهي منطقة في جنوب الجزيرة وبين مكان المعركة في شمال الجزيرة

العربية. وكذلك البعد بين أذرعات منطقة في بلاد الشام ويثرب في الحجاز.

(١٢) ينظر عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص٢٦.

(١٣) ينظر السابق، ص٢١.

(١٤) أحمد أمين، النقد الأدبي، ط٣، مكتبة النهضة العربية، ١٩٦٣م، ص٣٠.

(١٥) عبدالعزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي، ص٣٨.

(١٦) ينظر: محمد حسن عبدالله، مقدمة في النقد الأدبي، ط١، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م، ص٢٦٣.

(١٧) ينظر: إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص١٣.

(١٨) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٤٧.

(١٩) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص٨.

(٢٠) السابق، ص٩.

(٢١) ينظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ت: عبدالسلام هارون, ط٣، مؤسسة الخانجي- القاهرة، الكتاب الثاني، ج١، ص٥٢.

(٢٢) السابق، ص١٢-١٣.

(٢٣) أبو عبدالله، الحسين بن أحمد الزوزني، شرح المعلقات السبع، دار صادر- بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٠.

(٢٤) نصرت عبدالرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ط ٢، مكتبة الأقصى- عمان, ١٩٨٢م، ص٢٨.

(٢٥) انظر: لويس شيخو اليسوعي. شعراء النصرانية قبل الإسلام، طبعة ٤، دار المشرق- بيروت، ١٩٩١م، ج١، ص٣٠.

(٢٦) القصيدة منسوبة إلى امرئ القيس في بعض الدواوين، وهناك من يرى أنها من أشعار العصر العباسي نحلت على امرئ القيس.

(٢٧) ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، ط٧، دار المعارف-مصر، ١٩٨٨م، ص٣٢٨. الحادي: ما استقبلك من تجاهك من الطير والوحش والشاحج: الغراب المسن الذي غلظ صوته والأعضب: المكسور القرن.

(٢٨) انظر: منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ط٦، ج١٥، ص١٥.

(٢٩) رواه البخاري ومسلم.

(٣٠) انظر: وصية أعرابية لولدها، محمد صالح الشنطي، في الأدب العربي القديم، ط ٤، دار الأندلس للنشر والتوزيع- حائل، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص٢٤٢.

(٣١) العسكري، أبو هلال. جمهرة أمثال العرب، ت: أحمد عبدالسلام وزملاؤه. دار الفكر، بيروت، ج٢، حرف الميم.

(٣٢) السيوطي، عبدالرحمن ابن أبي بكرجلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ت: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية- بيروت، ط ١٩٩٨م، ج١، ص٧٠.

(٣٣) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط٤، دار المعارف- مصر، ١٩٦٥م، ص٢٥.

(٣٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٦٨.

(٣٥) القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، (ت ٥٤٤هـ)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وبحاشيته: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفا، لأحمد بن محمد الشمني، دار الفكر للطباعة والنشر- بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م، ج١، ص٧٠.

(٣٦) بتصرف: مصطفى عبدالعليم، بلاغة الرسول ﷺ، المنتدى الإسلامي، الشبكة العنكبوتية.

(٣٧) الخطيب القزويني، جمال الدين أبو المعالي محمد بن عبدالرحمن، (ت ٧٣٩هـ)، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح، ت وشرح: محمد عبدالمنعم خفاجي، ط ٣، دار الجيل- بيروت، ١٤١٢هـ- ١٩٩٣م، ج١، ص٢١. وانظر: ابن سنان الخفاجي عبدالله ابن محمد بن سعيد، (ت ٤٦٦هـ)، سر الفصاحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص٥٨ وما بعدها.

(٣٨) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا يقل: خبثت نفسي. والحديث من رواية أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) "لا يقل أحدكم خبثت نفسي، ولكن ليقل لقست نفسي". دار الريان للتراث-بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م. وانظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص١٣-١٤. وانظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص١٧.

(٣٩) القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، شرح النووي، -كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها- باب كراهة قول الإنسان خبثت نفسي، حديث رقم ٢٢٥٠، ص٤٢٠.

(٤٠) السخاوي، الحافظ شمس الدين محمد ابن عبدالرحمن فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، ت: عبدالكريم الخضير ومحمد الفهيد، ط١، دار المنهاج- جدة، ج١، ص٣٧١.

(٤١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٣.

(٤٢) الترمذي محمد بن عيسى، كتاب السنن (الجامع المختصر) من السنن عن رسول الله ومعرفة الصحيح والمعلول وما عليه العمل، ت: بشار عواد معروف، دار

الغـــرب الإســـلامي، ط١، ١٩٩٦م. بيروت، باب: ما جاء في الفصاحة والبيان.

(٤٣) أخرجـه مسـلم في صـحيحه، عـن ابـن مسعود ﷺ، كتـاب العلـم، بـاب: هلـك المتنطعون.

(٤٤) موسوعة الحـديث، حـديث رقـم ٢٤٥، شبكة: إسلام ويب.

(٤٥) شرح الأربعـين النوويـة، رواه الشـيخان عن أبي هريرة ﷺ.

(٤٦) أخرجه الترمذي في سـننه، حـديث رقـم ٢٦١٦.

(٤٧) أخرجه البخـاري في صـحيحه، حـديث رقم ٥٩٧٥ عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٤٨) أخـرجه مسلـم وأبـو داوود من حـديث عمار بن ياسر ﷺ.

(٤٩) ينظر: الجاحظ، البيان والتبـيين، الكتـاب الثاني، ج١، ص١٣.

(٥٠) ينظر: ابـن قتيبـة الـدينوري عبـدالله بـن مسلم، (ت٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء ت: أحمـد محمـد شـاكر، المعـارف- القـاهرة، ١٩٦٧م، ص١٧.

(٥١) السابق، ص١٧.

(٥٢) ينظر: السابق، ص١٢٥.

(٥٣) الآمدي، الموازنة، ت: محمود توفيـق، ط١، ص٢١٩. وانظـر: عـز الـدين اسماعيـل، الأسس الجماليـة في النقـد العربـي، دار الفكـر العربـي-القـاهرة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م ، ص١٢٦.

(٥٤) الجـاحظ، البيـان والتبـيين، السـندوبي، القـــاهرة، ١٩٤٧م، ج١، ص٩٧-٩٨. وانظـر: عـز الـدين إسماعيـل، الأسـس الجمالية في النقد العربي، ص١٢٦.

(٥٥) الجاحظ، البيان والتبيين، كتـاب ٢، ج٢، ص١٥.

(٥٦) السابق، ص١٥-١٦.

(٥٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص١٦.

(٥٨) ابن حجر العسـقلاني، فـتح البـاري، ط مصطفى البابي الحلبي، ج١٢، ص٣٤٩.

(٥٩) ابن منظور المصـري (ت٧١٠هـ)، لسـان العرب، مادة: سحر، دار صادر- بيروت، ١٩٩٥م، ج٤، ص٣٤٨. وانظر: الأصفهاني أبو القاسم الحسين ابن محمد الراغـب، المفـردات في غريـب القـرآن، تحقيـق: صـفوان عـدنان داوودي، دار العلـم الشامية، ط. دمشق ١٤١٢هـ، ص٢٢٦.

(٦٠) ابن منظور المصـري (ت٧١١هـ)، لسـان العرب، مادة: سحر، دار صادر- بيروت، ١٩٩٥م.

(٦١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص٥٣.

(٦٢) صـلاح عبـدالفتاح الخالـدي، نظريـة التصوير الفني عند سيد قطـب، ط١، دار الفرقـان- عمـان، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ص٨٥.

(٦٣) رواية الباقلاني في كتابه: إعجاز القرآن. انظر: عبدالرؤوف مخلوف، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، دراسة تحليلية نقدية، دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٧٨م، ص٢١١.

(٦٤) رواية الإمام مسلم بن الحجاج القشيري في صحيحه. انظر: السندي، نور الدين محمد عبدالهادي، حاشية السندي على صحيح البخاري، كتاب الطب، حديث رقم ٥٧٥٨، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م، ج٤، ص٣٧.

(٦٥) عبدالرؤوف مخلوف، الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن، ص٢١١.

(٦٦) النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن دينار، السنن الصغرى، ط جمعية المكنز الإسلامي القاهرة، مصر، كتاب البيوع، حديث رقم ٤٧٦٦.

(٦٧) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ١، ج١، ص٢٨٧.

(٦٨) ينظر: ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، البداية والنهاية، ت: علي شيري، ط ١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م، ج٢، ص٦٥.

(٦٩) ينظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ط١٤، دار الريان، ١٩٨٦م، كتاب الطب، باب الكهانة.

(٧٠) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ط٢، مكتبة لبنان- ١٩٩٦م، ص٣١١.

(٧١) الخطيب القزويني، الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح، ج٢، ص١٠٦.

(٧٢) الحديث من رواية البخاري في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، حديث رقم٦٧٨٢. وانظر: النسائي، السنن الصغرى، كتاب الاستعاذة من دعاء لا يسمع، حديث رقم٥٤٧٠.

(٧٣) رواه مسلم، حديث رقم ٢٠٤٦.

(٧٤) أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧٥) الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، ج٢، حديث رقم ٨٥٥.

(٧٦) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ١، ج١، ص١٩٤.

(٧٧) السابق، ص١٩٤.

(٧٨) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص٦٢٩.

(٧٩) شوقي، أبو خليل، هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ص١٦٨.

(٨٠) أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله ابن سهل، (ت ٣٩٥هـ)، رسالة في التفضيل بين

بلاغتي العرب والعجم، (نشرت في مجموعة التحفة البهية) القسطنطينية، ١٣٠٢هـ، ص٢١٨. وانظر: عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص١٢٧.

(٨١) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج١، ص١٩٤.

(٨٢) السابق، ص١٩٥-١٩٦.

(٨٣) ينظر: فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ط٤، دار الفرقان- عمان ١٤١٧هـ-١٩٩٧م، ص٤٥٩ وما بعدها.

(٨٤) ينظر: أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ط١، وكالة المطبوعات- الكويت ١٩٨٠م، ص٢٠٣ وما بعدها.

(٨٥) رواه النسائي وابن ماجة، موقع: الفقه الإسلامي، الشبكة العنكبوتية.

(٨٦) رواه البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، موقع: الفقه الإسلامي وعلماء الشريعة، الشبكة العنكبوتية.

(٨٧) الحديث من رواية أنس بن مالك ﷺ، موقع: الفقه الإسلامي وعلماء الشريعة، الشبكة العنكبوتية.

(٨٨) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج١، ص١٩٥.

(٨٩) رواه مسلم وأبو داوود انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، حديث رقم ٢٦٧٠، دار الفكر، بيروت- لبنان، ج١٦، ص٢٢٠.

وانظر: سنن أبي داوود، كتاب السنة، باب لزوم السنة، حديث رقم ٤٦٠٨.

(٩٠) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج١، ص١٩٥.

(٩١) محمد أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ت: عبدالعزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر-الرياض، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص٧٦.

(٩٢) الحديث مرفوع رقم ٥، باب: ذكر سبب تضييع العمر، موسوعة الحديث النبوي، الشبكة العنكبوتية.

(٩٣) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص٥١.

(٩٤) محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص٩٣.

(٩٥) السابق، ص٩٣.

(٩٦) القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل وعلي محمد البيجاوي، المكتبة العصرية- صيدا، ص ٣٣-٣٤. وانظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر، ص٣٧٦.

(٩٧) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج١، ص٥٢.

(٩٨) السابق، ص١١٨.

(٩٩) عمران بن حطان السدوسي، خطيب أموي من رءوس الخوارج، حدث عن

عائشة وأبي موسى الأشعري. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ج٤، ص٢١٤.

(١٠٠) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ٢، ج١، ص١١٨.

(١٠١) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص١٥، بتصرف.

(١٠٢) عبدالملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ت: أحمد حجازي السقا دار التراث العربي- مصر، ج٥، ص٥٦٦.

(١٠٣) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ت: شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط، ط ٣، مؤسسة الرسالة- عمان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، ج١، ص٧٠.

(١٠٤) عطارد بن حاجب بن زرارة التميمي أبو عكرمة. انظر ترجمته في: الإصابة في تمييز الصحابة لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

(١٠٥) أبو جعفر محمد بن جريرالطبري، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي- بيروت، ج٢، ص١٨٨-١٨٩.

(١٠٦) السابق، ص١٨٩ وما بعدها.

(١٠٧) القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم، شرح يحيى بن شرف النووي، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، مسألة ٨٦٧، دار الخير ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص٤٦٤.

(١٠٨) الحديث رواه الشيخان.

(١٠٩) أخرجه الطبراني وأحمد في مسنديهما من حديث ابن عمر(رضي الله عنهما). انظر: الهندي علاء الدين علي بن حسام الدين. كنز العمال، ت: صفوت السقا، مؤسسة الرسالة/ بيروت، حديث رقم ١٩٦٧١ من كتاب الصلاة قسم الأقوال، ج٤، ص١٧٩.

(١١٠) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ج ٦، ص٢٢٢.

(١١١) انظر: الألباني، محمد ناصر الدين. سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٥م، ج٣، حديث رقم ١٢٧٢.

(١١٢) ابن سلام الجمحي (ت ٣٣٢هـ) طبقات فحول الشعراء، ت: محمد أحمد شاكر. وانظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، ص٢١.

(١١٣) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي، ص٨٠.

(١١٤) أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، ط ٨، مكتبة النهضة المصرية، ص١٢٦-١٢٧.

(١١٥) إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، ط٢، دار المسيرة- عمان، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٧م، ص٦٦.

(١١٦) أخرجه البخاري في العلم، ج١، ص٢٧٢، باب من خص بالعلم. وانظر:

الهندي، كنز العمال، باب حديث الناس بما لا يعرفون، رقم ١١٨٥، ج١، ص٣٥٩.

(١١٧) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه، في خطبة الكتاب، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ج١، ص٤.

(١١٨) إسماعيل بن محمد الجراحي العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث، ط مؤسسة الرسالة- ١٤٠٥هـ، ج١، ص٤٨.

(١١٩) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٣، ص٣٥٩.

(١٢٠) وليد سعيد عيسى شيمي، في التحليل البلاغي النقدي للنصوص، ط١، دار الأندلس للنشر والتوزيع/ حائل، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٢.

(١٢١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ج٥، ص٤٣٤.

(١٢٢) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب فضل مكة، رقم ١٥٨٤.

(١٢٣) أخرجه البخاري ومسلم عن معاذ بن جبل ﷺ. انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، حديث رقم ٣٢.

(١٢٤) عبدالعزيز عتيق، في البلاغة العربية (علم المعاني) دار النهضة العربية-بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص١١.

(١٢٥) الجاحظ، البيان والتبيين، كتاب ١، ج١، ص١٣٦.

(١٢٦) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، ط، البابي الحلبي- القاهرة، ج١، ص٥١.

(١٢٧) محمد علي الصابوني، من كنوز السنة (دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف) مكتبة الغزالي- دمشق، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ص٣٦.

(١٢٨) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢، ص٣٦.

(١٢٩) أخرجه أحمد والبخاري وأبو داوود، وانظر: صحيح الأدب المفرد للشيخ ناصر الدين الألباني والحديث عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ رقم ١٠١.

(١٣٠) متفق عليه، والحديث عن أبي موسى الأشعري ﷺ.

(١٣١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة...، باب تحريم ظلم المسلم...رقم ٢٥٦٤. وانظر: شرح الأربعين النووية، الحديث رقم ٣٥. وانظر: النووي، يحيى بن شرف الدين، شرح النووي على مسلم، ط١، دار الخير ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج٦، ص٩٤.

(١٣٢) الحديث متفق عليه، وانظر: رياض الصالحين للنووي، حديث رقم ١٥٥٨.

(١٣٣) محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، ص٣٦.

(١٣٤) انظر: فتح الباري: باب قوله تعالى: ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾.

(١٣٥) الرافعي، مصطفى صادق. تاريخ آداب اللغة العربية، دار الكتاب العربي، ج٣، ص٢٤٨.

(١٣٦) الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م، ج٣، ص٤٥.

(١٣٧) أحمد الشايب، الأسلوب، ط ٨ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م، ص٣٥.